الفصل الثالث

الأمراء

بهذا الاسم كان يُسمّى وُلاة البلاد — وكذلك أبناء بيت الخلافة — إلاّ كافوراً بمصر ، فإنه امتنع من التسمّي بالإمارة ، ورأى تواضعاً أن يجرى على رسمه فى المخاطبة بالأستاذية[1] . أما لقب « أمير الأمراء » فى بلاط الخلافة فلا شأن له فى الأصل بولاية الحكم ؛ فهو لا يعدو أن يكون لقباً لأكبر رجل بيده الأمر ، كما أن « وزير الوزراء » لقبٌ لأكبر الوزراء ؛ وقد كان مؤنس القائد صاحب الجيش يحمل لقب أمير الأمراء ، وإن لم يكن يشعر فى نفسه بأنه يلى حكم ولاية ما .

ولم يكن لأمراء المملكة الإسلامية علامةٌ تميزهم من الجهة الرسمية ؛ فكان يُدعى لهم فى كل جهة مع الدعاء لحاكمها ، وذلك بعد الدعاء للخليفة . أما فى العراق فقط حيث كان أمير المؤمنين هو الذى يدير أمورها بنفسه من غير والٍ فكان لا يُذكر أحدٌ مع الخليفة فى الخطبة ، لأن ذلك كان يُشعر بشىء من الانتقاص لمنصب الخليفة ، وقد حدث أن أُسندت الحجبة ورئاسة الجيش لمحمد بن ياقوت فى عام ٣٢٣ هـ — ٩٣٤ م فأدخل يده فى تدبير كل شىء ، ونظر فيما ينظر فيه

---

(١) يحيى بن سعيد ص ١٩٥ ا . كان لقب الأستاذ فى المشرق لقباً للوزراء ؛ فكان ابن العميد يلقب بذلك (مسكويه ج ٦ ص ٢١٩ — ٢٢٠) ، وكان يلقب به غير ابن العميد (ابن تغرى بردى طبعة كاليفورنيا ص ٣٤) ، واليوم يطلق هذا الاسم فى القاهرة على المؤدى . [ولكن الواقع أن لفظ الأستاذ اليوم يطلق على المدرس بوجه عام وعلى المتقدم أيضاً ، وإن كان العامة لا يزالون يستعملونه فيما يتعلق بالشيخ المربى مربى المشايخ] . (المترجم)

الوزير ، وطالب أصحاب الدواوين بحضور مجلسه ، وألا يقبلوا توقيعاً فى سائر الأحوال إلا بعد أن يوقع فيه بخطه ، واضطر الوزير إلى أن يحضر مجلسه ، وصار كالمتعطل ملازماً لمنزله لا يعمل شيئاً[1] ؛ ولكن لما دعا الأئمة له فى الجانب الشرقى والغربى ببغداد ، بعد دعائهم للخليفة الراضى ، وقرظوه أنكر الراضى ذلك ، وأمر أن يقلد مكانَ الأئمة جميعا أئمةٌ من بنى العباس[2] . غير أن الراضى اضطر فى العام التالى أن يرضى بذكر ابن رائق بعده فى الخطبة ، ومعنى هذا أنه اعترف بأمير دونه فى العراق[3] .

وكان بنو حمدان ، من بين سائر أمراء البلاد أسوأ من يمثل خصال البدو . ومن أمثلة طباعهم البدوية أنه لما التقى علىّ بن عبد الله بن حمدان مع المتقى وابن رائق فى الموصل نزل المتقى دارَ ابن فهد الموصلى ، ونزل ابن رائق فى دار بالقرب منه ؛ أما علىّ بن حمدان ، فإنه نزل بدير الأعلى فى خيمة أقامها . وكان علىّ هذا قد أنس بابن رائق ، وكان يدعوه للشراب ، فكان إذا عمل الشراب فيه وصف نفسه بالشهامة والرجولة وازدرى بنى حمدان وقال لعلىّ : وأى شىء تَسْوون أنتم ،

---

(١) مسكويه ج ٥ ص ٤٧٣ — ٤٧٤ .

(٢) الأوراق للصولى ص ٨٣ .

(٣) كان لقب السلطان لا يطلق فى ذلك الوقت إلا على الخليفة ، وكان يقال دار السلطان ببغداد أى دار الخليفة ؛ أما ما يقوله ابن خلدون (كتاب العبر طبعة بولاق ج ٣ ص ٤٢٠) من أن معز الدولة ملك بغداد واختص باسم السلطان فهو غير صحيح . ويقول أبو المحاسن المؤلف المصرى المتأخر (النجوم الزاهرة ، ليدن ج ٢ ص ٢٥٢) إن فرعون لقب ملك مصر قديما والسلطان لقبهم حديثاً ، وكذلك يرى الظاهرى (من علماء القرن التاسع الهجرى) أن الحاكم الوحيد الذى يسمى السلطان بحق هو حاكم مصر . وهذا يتفق مع ما جرى عليه الأوروبيون فى العصور الوسطى من استعمال كلمة سلطان دائماً فيما يتعلق بمصر . ويظهر أن الحكام المتأخرين ببغداد لم تكن تقام لهم الجمعة بعد الخليفة فى الصلاة ، حتى أكرم عضد الدولة بهذا الشرف عام ٣٦٨ هـ — ٩٧٩ م ، وهو ما اختص به « دون من مضى من الملوك على قديم الأيام وحديثها » (مسكويه ج ٦ ص ٤٩٩ — ٥٠٠) .

وأى يوم كان لكم، وهل أنتم إلا أعراب ! ؟[١] وسنتكلم فى غير هذا المقام عن سوء سيرة الحمدانيين فى الحكم ونهبهم أموال الرعية وأملاكهم ، وجورهم على الزراع وعداوتهم للعمارة والأشجار ، وتخريبهم ، ونقضهم الدائم للعهود التى يقطعونها ؛ ومن أمثلة غدرهم أن الحسين بن حمدان ، وهو رأس أسرتهم ، قتل العباس بن الحسن الوزير فى عام ٢٩٦ هـ — ٩٠٨ م ، وهو راكب يوما إلى بستانه ؛ وذلك أنه أعرضه وعلاه بالسيف ، فقتله[٢] ؛ وكذلك فعل ناصرُ الدولة أبو محمد بن حمدان بابن رائق ، فقتله وهو ضيفٌ عنده فى خيمته قتل غدر وخيانة[٣] . وكان النزاع وعدم رعاية حقوق الطاعة سائدَين فى بيت بنى حمدان ، ولا سيما فى فرعهم بالجزيرة[٤] . وكذلك كان الحال فى فرعهم بالشام حيث قتل أبو المعالى بن سيف الدولة بن حمدان خالَه أبا فراس ؛ فقد لحقه وقتله رغم استئمانه ، ثم أخذ رأسه وترك جثته فى البرّيّة[٥] . ولم يظهر أحدٌ من الحمدانيين بشىء من الفروسية والأعمال العظيمة إلا سيف الدولة . على أننا نلاحظ أنه كان فى حربه مع الروم يقع دائما فى نفس الفخّ ، ولذلك يقول أبو الفدا : « وكان سيف الدولة مُعْجَبا بنفسه ، يحب أن يستبدّ ، ولا يشاور أحداً ، لئلا يُقال إنه أصاب برأى غيره »[٦] . وكثيرا ما صبّ القائدان التركيان ، توزون وبجكم ، على رأسه الهزائم .

(١) كتاب العيون ص ١٩٣ ب — ١٩٤ ا .
(٢) نفس المصدر ص ١٦١ ا — ب .
(٣) مسكويه ج ٦ ص ٦٠ — ٦١ وكتاب العيون ص ١٩٨ ا — ب .
(٤) انظر مثلا مسكويه ج ٦ ص ٢٢٤ لترى ما كان يقع بين ناصر الدولة وبين أولاده .
(٥) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٣٤ ، وانظر ما حكاه ابن خلكان نقلا عن ثابت بن سنان (الوفيات طبعة ١٢٩٩ هـ ، ج ١ ص ١٠٩) وانظر Dvorak : Abû Firâs, Leiden, 1895, S. 114 ff.
(٦) تاريخ أبى الفدا ج ٢ ص ١٠٨ تحت عام ٣٤٩ هـ .

وكذلك يرجع أصلُ البريديين إلى الدولة الإسلامية الأولى ، فقد كانوا حكاماً للعراق زماناً طويلا ، وكانوا في أول أمرهم كتاباً أصحاب دراريع[١] أكثر مما كانوا قوّادا . ومع هذا فقد خاضوا غمار كثير من الوقائع وقاتلوا قتال المواصل ؛ ولكنهم من قصر النظر والجشع لم ينزلوا لبني حمدان عن شيء . وقد بدأ عهد الفساد الحقيقي ببغداد عام ٣٣٠ هـ — ٩٤١ م ، وهو العام الذي فتح فيه البريديُّ بغداد وفرّ فيه الخليفة إلى الموصل ؛ وذلك أن البريدي ظلم الناس ظلماً معروف ، وافتتح الخراج في آزار وخبط أصحاب الأراضي وخبط أهلَ الذمة ووظّف على كل كرّ من الحنطة سبعين درهما ، وأخذ جزءا من مال التجار غصبا[٢] . وفرّ آخر البريديين إلى القرامطة في جنوب جزيرة العرب ، ولكنه بعد ذلك كتب إلى معز الدولة يلتمس الأمان ليصير إلى حضرته ، فأعطاه من من التوثقة ما أحب ، فوافاه وقبّل الأرض بين يديه ؛ وأكرمه معزُّ الدولة ، وأقطعه الضياع ، ورسمه بمنادمته[٣] .

ولو أننا قارنا بين هؤلاء الأمراء الذين يقترن حكمهم بالنهب وبين القواد الذين جاءوا من الشمال وأقاموا ملكهم في داخل بلاد الإسلام ، لوجدنا أن هؤلاء الأخيرين أحسن سيرة في الحكم وأشبه بآباء لرعيتهم . ومنهم السامانيون الذين أرادوا أن ينشئوا بينهم وبين الفرس نسبا ، وأن يُرجعوا أصلهم للملوك بني ساسان . وقد بلغوا أوج عزتهم في أواخر القرن الثالث الهجري حيث كانت بلاد ما وراء النهر والجبل وإيران كلها إلى كرمان تحت سلطانهم ؛ بل كان في داخل حدود دولتهم الكبيرة ولاياتٌ تكاد تكون مستقلة ، مثل بلاد سجستان التي يحكمها

---

(١) مسكويه ج ٥ ص ٥٦٥ .
(٢) مسكويه ج ٦ ص ٥٨ ، وكتاب العيون ص ١٩٣ ا .
(٣) مسكويه ج ٦ ص ١٥٤ ، وكتاب العيون ص ٢١٧ ب .

بنو الصفّار ؛ وهؤلاء وإن كانوا يخطبون لصاحب بخارى فلم يكن له عليهم إلاّ حملُ أموال وهدايا ؛ بل اضطر السامانيون نظراً لسعة أرجاء دولتهم إلى إنشاء ما يشبه منصب « نائب الملك » ، فكانوا هم مثلاً يقيمون فى بخارى على حين أن صاحب جيشهم كان يقيم فى نيسابور التى جعلها الظاهريون قصبة خراسان . أما عن حكمهم فالمقدسى يمتدح سيرتهم فى الحكم ، ويقول إنهم من أحسن الملوك سيرة ونظراً وإجلالا للعلم وأهله ؛ فقد كان من رسومهم مثلا أنهم لا يكلّفون أهل العلم تقبيل الأرض بين أيديهم ، ويذكر المقدسى أن فى أمثال الناس : « لو أن شجرة خرجت على آل سامان ليبست » ، ويقول : ألا ترى إلى عضد الدولة وتجبّره وتمكّنه ، وكمال دولته ، وقوة أمره ! قد فُتحت له البلاد طوْعا ، وملك ما ملك ، فلما تعرّض لآل سامان وطلب خراسان أهلكه الله ، وشتّت جمعه ، وفرّق جيوشه ، ومكّن أعداءه من ممالكه ، فتبًّا لمن عاند آل سامان[1] . ولعل هذا الإطراء من جانب المقدسى كان لأسباب شخصية ؛ فالحقيقة أن الديلم أخذوا من السامانيين إيران كلها ، وإن كان ذلك لم يتم لهم إلاّ بعد نضال طويل ، حتى كان سبكتكين قائد معزّ الدولة ببغداد يضطر إلى الإسراع للرى فى كل عام تقريبا لمعاونة أخى معز الدولة فى محاربته السامانيين ؛ ولم يمض أكثر من عشرين سنة على مبالغة المقدسى فى مدح آل سامان حتى اجتاح الترك دولتهم من الشمال والجنوب ، وقُتل آخر ملوكهم هاربا . على أن ملوك السامانيين كانوا دائما يظهرون ولاءهم للخليفة فى بغداد وتعلّقهم به ، وكانوا دائما يبعثون إليه الهدايا ، بل نجد أحمد بن إسماعيل يرسل فى سنة ٣٠١ هـ — ٩١٣ م إلى الخليفة ببغداد شيخاً يستحمد إليه ما فعله من ردّ غارة الترك على المسلمين وقتْل كثيراً منهم ، ويخطب إليه شرطة بغداد ، بعد أن خلا منصب

(١) المقدسى ص ٣٣٧ — ٣٣٩ .

صاحب الشرطة بوفاة من كان يشغله من بني طاهر[١] ؛ وكذلك نجد نصراً السامانى يرسل للخليفة عام ٣٣٠ هـ — ٩٤١ م هدية كبيرة ، ومنها رأس أحد ثوّار الديلم ، فكأن نصراً قد رضى أن يضع نفسه فى موضع والٍ من ولاة الخليفة[٢] .

وكان المستقبل للشعوب التى تسكن جبال الألب الآسيوية فى شمال فارس ، والتى كانت حتى ذلك الحين بمثابة قوّاد مدّخرين لوقت يظهرون فيه . وقد استطاعوا أن يخضعوا لحكمهم بلاداً أوسع كثيراً من البلاد التى أخضعها نظراؤهم السويسريون الذين يسكنون جبال الإلب الأوربية حين بلغوا ذروة قوّتهم ؛ وكان القائد مرداويج الديلمى أكبر من استرعى نظرالمؤرخين من بين قواد الجبل الذين حكموا إيران الغربية بعد موت يوسف بن أبى الساج . ولم يكن الإسلام عميقاً فى قلب هذا القائد ، فقد فعل بأبناء المسلمين و بناتهم فعلَ الكفار ، فأعمل فيهم السَّبْىَ ، حتى قيل إنه ملك من الغلمان والجوارى فى قول المقل خمسين ألفاً ، وفى قول المُكثِر مائة ألف ؛ وأعمل السيف والنار فى أهل همدان كأنهم كافرون[٣] ؛ حتى إن أهل فارس شغبوا فى سنة ٣٢٠ هـ — ٩٣٢ م أمام دار الخليفة ببغداد واعترضوا على فرض الحكومة الضرائب فى حين أنها لا تقف إلى جانب المسلمين لتحميهم . وبعث مرداويج بقائد من قواده إلى مدينة الدينور ، فدخلها بالسيف ، وقتل من أهلها آلافاً كثيرة ؛ « فخرج إليه فى مستورى أهل البلد وصوفيتها وزهادها رجلٌ يقال له ابن مشاده و بيده مصحف قد نشره ، فقال للقائد : اتق الله ، وارفع السيف عن هؤلاء المسلمين ، فلا ذنب لهم

---

(١) صريب ص ٤٢ .

(٢) كتاب العيون ص ١٩١ ب .

ولا جناية يستحقون بها ما قد نزل بهم ، فأمر بأخذ المصحف من يده فضرب به وجهه ، ثم أمر به فذبح »[١] .

كان مرداويج رجلاً متفائلاً عريض الآمال والمشروعات ؛ فقد زعم أن يرد دولة العجم ويبطل دولة العرب[٢] ؛ وسأل عن تيجان الفرس وهيئتها ، فمثلت له ، فاختار صفة تاج كسرى ، فعمل له تاج من الذهب جمعت فيه أنواع الجواهر ، وضرب له سرير من الذهب رصع بالجواهر ، فجلس عليه ، وجعل عليه منصة عظيمة ، وجعل أمامه سريراً من الفضة عليه فرش مبسوط ، ودون ذلك كراسي مذهبة ليرتب أصحاب الأقدار مراتبهم في الإجلاس ؛ وكان ينوى قصد بغداد وتشييث الدولة ؛ وكتب إلى عامل له أن يعد له إيوان كسرى منزلا ، ويعمره كهيئته قبل الإسلام . وقد طاف به بعض شياطين الدهاة فزخرفوا له صورة ملك سيظهر ، وتجبى له كنوز الأرض ، فمال إلى ذلك ، وأظهر أنه ذلك الملك الذى يملك الأرض فأراد أن يسير إلى مدينة السلام ويقبض على الخليفة ويولى أصحابه مدن الإسلام بأسرها في شرق الأرض وغربها ، مما في يد ولد العباس وغيرهم ؛ واسترسل في مثل هذا الخيال[٣] ؛ وكان جنوده يخشون سطوته وغدره وكبرياءه . ولما حضرت ليلة الوقود في أصفهان (انظر فصل الأعياد) جمعت الأحطاب من الجبال والنواحى البعيدة ، وأعدت الشموع العظام ، وعمل بمجلسه الخاص تماثيل وأساطين كبيرة من الشمع ، وحشد على رءوس الجبال واليفاعات ما لم تجر العادة بمثله ؛ فلما خرج وطاف بذلك استحقره كله واستصغره ، « قال وذلك لأجل سعة الصحراء ، ولأن البصر إذا امتد في فضاء واسع ثم انقلب عنه إلى هذه الأشياء المصنوعة استحقرها . وإن كانت عظيمة » ، واغتاظ وسكت ودخل إلى

---

(١) نفس المصدر ج ٩ ص ٢٤ — ٢٥ .

(٢) الأوراق للصولى ص ٨١ ، ومسكويه ج ٥ ص ١٨٨ .

(٣) مروج الذهب ج ٩ ص ٢٧ — ٢٠ ؛ ومسكويه ج ٥ ص ١٨٩ — ١٩٠ .

خيمته واضطجع والتف بكسائه ، وحوّل وجهه إلى خلاف الباب لئلا يكلّمه أحد ؛ ولم يجسر القواد والأمراء على مخاطبته ؛ ثم أقنعه الوزير بعد كدّ أن يظهر للناس ، فركب كارهاً متحاملاً بعد لجاج وإباء ، فطاف مغضبا مغتاظا ، وانصرف إلى موضعه ، ولزم حالته الأولى[1] .

وكان له أربعة آلاف من المماليك الأتراك[2] إلى جانب خمسين ألفاً من الديلم ، وقد استخلص من هؤلاء الأتراك نفراً اختص بهم ، فوَجِد الديلم من ذلك[3] ، ورغم أنه كان يؤثر الغلمان الأتراك فقد اتفق يوما أن شَغَبت دوابُّهم ، وارتفعت أصواتها وأصوات من يزجرها ، فانتبه مرداويج مذعوراً على هذه الأصوات الهائلة المنكرة ، فأمر أن تُحَطّ السروج عن الدواب ، وتُجْعَل على ظهور الغلمان الأتراك مع جميع آلتها ، وأن يقودوا الدوابَّ بأنفسهم من أرسانها إلى الإصطبلات ؛ وكانت الصورة قبيحة ، وقد حَقِد عليه الغلمان لذلك ثم اتفقوا على الفتك به ، فهجموا عليه وهو في الحمّام وقتلوه[4] . وقد استطاع أخوه وشمكير وابنه قابوس أن يحتفظا بإمارة صغيرة في أقصى الشمال من إيران ؛ ثم آل ميراثهم إلى بنى بُوَيْه ، وهم قواد مرتزقة من بلاد الجبل بفارس .

وكان بنو بُوَيْه بعيدين عن الثقافة العربية ، حتى إن معز الدولة لما جاء إلى بغداد وملَكها احتاج إلى من يترجم له كلام الوزير على بن عيسى[5] ؛ وقد رفع بنو بويه أنفسهم بالدهاء والمكر والمهارة الجندية ؛ وكانوا لا يترددون

---

(١) مسكويه ج ٥ س ٣٧٩ — ٤٨٢ .

(٢) مروج الذهب ج ٩ س ٢٦ ، ٢٨ .

(٣) الأوراق للصولى س ٨٠ — ٨١ .

(٤) مسكويه ج ٥ س ٤٨٢ — ٤٨٥ .

(٥) تاريخ الهمذانى مخطوط رقم ١٤٦٩ بباريس س ١٠٠ ب والمقدمة الإنجليزية لكتاب الوزراء س ٧ .

ولا يخجلون من ترك خدمة قائد إلى خدمة آخر يدفع لهم أكثر من الأول ؛ فمن ذلك أنه لما هُزم ما كان بن كاكى الديلمى ، وكان معه أبو الحسن على بن بويه وأخوه أبو على الحسن ، استأذناه فى الانحياز إلى مرداويج ، وقالا لما كان : « الأصلحُ لك مفارقتُنا إياك ، لتخفّ عنك مؤونتُنا ، ويقع كَلْنا على غيرك ، فإذا تمكّنت عاودناك » ، فأذن لهما[1] ، وكان من أكبر الصفات التى ظهرت فيها مقدرة بنى بويه أنهم كانوا يستطيعون جمعَ المال من كل وجه ، وأن يدّخروه حتى يكون بين أيديهم المالُ دائماً ؛ وقد ساعدهم الحظ فى ذلك بأمور هى من عجيب الاتفاقات ؛ فيُحكى مثلا أن على بن بويه لما دخل شيراز اجتمع أصحابه وطالبوه بالمال ، ولم يكن معه ما يرضيهم ، فأشرف أمره على الانحلال ، واشتغل قلبه واغتمّ غما شديداً ، فبينما هو مستلقٍ على ظهره ، وقد خلا للفكر والتدبير ، إذ رأى حيّة قد خرجت من سقف المجلس الذى كان فيه من موضع ودخلت موضعاً آخر ؛ وخاف أن تسقط عليه ، وهو نائم ، فأمر الفراشين بإخراجها ، فوجدوا السقف يفضى إلى غرفة بين سقفين ، فأمرهم بفتحها ، فوجدوا فيها عدة صناديق من المال وغيره ، فأنفق ذلك فى رجاله بعد أن أشفى أمره على الانحلال[2] .

وكان السبب فى ارتفاع علىّ بن بويه سماحته وشجاعته وسعة صدره وحسن سياسته ؛ فمن ذلك أنه كان فى الرىّ وشمكير وأبو عبد الله الحسين بن محمد الملقب بالعميد ، ولم يزل علىّ بن بويه بأبى عبد الله هذا يلاطفه بالهدايا ، حتى غمره بالبرّ ، فكاتم كتابا من مرداويج إلى وشمكير يمنع علىّ من الخروج ، وأمرّ لعلىّ بالخروج ،

---

(١) مسكويه ج ٥ ص ٤٣٥ .

(٢) مسكويه ج ٥ ص ٤٦٣ — ٤٦٤ .

ففاز بالولاية ، ولما وصل إلى الكرج أحسن إلى الرجالي ، ولاطف عامل البلد ، فكان يكتب بشكره وضبطه الناحية ؛ واتفق أن افتتح قلاعاً كانت في أيدي الخُرَّمِيَّة في تلك الأطراف ، ووقع بين أصحابها خلاف ، فانحاز بعضهم إليه ، وأطلعه على ذخائر جليلة أخذها وصرفها كلها في استمالة الرجال واستعطاف القلوب ؛ ولاطف قواد مرداويج ، وأفضل عليهم ، حتى أوجبوا طاعته ، وكان ذا فضل يتسامع به الناس فيميلون إليه[1] . فلا عجب إذن أن يسهل عليه الانتصار على جيش الخليفة حتى استولى على جنوب إيران . وكان بنو بويه إلى جانب هذا يحسنون معاملة الأسرى ، و يعفون عنهم ، ويؤمنونهم من جميع ما يكرهون ، حتى يطمئنوا إليهم ، على حين كان أعداؤهم يعدّون للأسرى قيوداً و برانس ليشهروهم بها ؛ ولقد ظفر عليّ بن بويه بأعداء له معهم هذه الآلات فعدل عن العقاب إلى العفو ، وابتعد عن الطغيان[2]

كان ركن الدولة صاحب الرى « لا يستجيب إلى عمارة نواحيه ، خوفاً من إخراج درهم واحد من الخزانة ، ويقنع بارتفاع ما يحصل للوقت »[3] .

وقد جمع عضد الدولة بما كان فيه من حرص ثروة هائلة ، وكذلك ترك فخر الدولة (المتوفى عام ٣٨٧ هـ — ٩٩٧ م) في العصور الأخيرة ، التي لم تكن عصور الغنى العظيم ، مالا كثيراً ؛ فقد ذكر ابن الصابي أنه خلّف ٢,٨٧٥,٢٨٠ ديناراً ومن الورق والنقد والفضة ٨٦٠,٧٩٠,١٠٠ درهما ، ومن الجواهر واليواقيت واللؤلؤ والماس والبلور والسلاح وضروب المتاع شيئاً كثيراً ؛ وكان شحيحاً حتى

(١) نفس المصدر ج ٥ ص ٤٣٦ — ٤٣٩ .
(٢) مسكويه ج ٥ ص ٤٤٤ — ٤٤٥ .
(٣) مسكويه ج ٨ ص ٣٥٢ .

كانت مفاتيح خزائنه فى الكيس الحديد مستقراً بالسامير لا يفارقه[١] . وكذلك يقول ابن الجوزى إن بهاء الدولة جمع من الأموال ما لم يجمعه أحد من بنى بويه، وكان يبخل بالدرهم الواحد ويؤثر المصادرات[٢] .

والصفة الثانية الكبرى مما اتصف به بنو بُوَيْه التضافر الوثيق والطاعة التامة ، وذلك فى أجيالهم الأولى على الأقل ؛ ويرجع الفضل فى ذلك إلى الصفات العظيمة التى توفرت لعلى بن بويه الذى لقب فيما بعد بعماد الدولة ، وهو الذى يرجع إليه الفضل فيما بلغه بيت بنى بويه من قوة وعزة . ومن أمثلة طاعتهم والتزامهم النظام أن معز الدولة ، وهو أصغر الإخوة الثلاثة ، وكان حاكما على العراق إذ ذاك ، لما لقى أخاه عماد الدولة بأرّجان عام ٣٦٣ هـ قبّل الأرض بين يديه ؛ وكان يقف قائما عنده ، فيأمره بالجلوس فلا يفعل[٣] . ولما مات الأخ الأكبر انتقلت الرياسة إلى أخيه الثانى ركن الدولة فى الرىّ ، فكان معز الدولة لا يخالف له أمراً ، وكان ركن الدولة يأمره بإنفاذ الجيوش فيفعل[٤] . ولما أيقن معز الدولة بالتلف وصّى ابنه ، وهو على سرير الموت ، بطاعة ركن الدولة ، واستشارته فى كل ما يعرض له من مُهِمّ ، وكذلك ابن عمه عضد الدولة لأنه أسنّ منه وأقوم بالسياسة[٥] .

ولما أراد عضد الدولة هذا أن يأخذ العراق من يد ابن عمه معز الدولة بعد ما أظهر من عدم الكفاية ، وسمع أبوه حالَ أولاد أخيه من القبض عليهم ، رمى بنفسه عن سريره ، وأقبل يتمرّغ ويُزْبد ، ويمتنع من الأكل والشرب أياماً ؛

---

(١) ابن تغرى بردى طبعة كليفورنيا ص ٨٢ — ٨٣ .
(٢) المنتظم ص ١٠٩ ب .
(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٠٣ .
(٤) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٦٦ .
(٥) مسكويه ج ٦ ص ٢٩٨ .

ومرض من ذلك مرضاً لم يستقلّ منه باقى حياته ؛ وكان يقول : إنى أرى أخى معز الدولة متمثلاً إزائى يعضّ على أنامله ، ويقول : « يا أخى هكذا ضمنت لى أن تخلفنى فى أهلى وولدى ! » ، وقد غضب والد عضد الدولة على ابنه ، وأمره أن يخرج من بغداد ويسلمها لأبناء عمه ، فخرج منها طاعةً لأبيه ، بعد أن كان قد أقام بها ، واتخذ لنفسه بها داراً[1] .

أما عماد الدولة فلم يكن رجلاً يمثل خصال السيد الحاكم ، بل كان أشبه بتاجر مخادع ؛ وكانت له مواهب الأكرة الأذكياء العمليين ؛ فمن ذلك أنه تقلد من الخليفة الراضى أعمالَ فارس على أن يحمل له فى كل سنة بعد جميع المؤن والنفقات مائة ألف ألف درهم ؛ فأرسل إليه الوزير ابن مقلة الخِلَع واللواء ورسم للرسول ألا يسلم اللواء والخِلَع إلا بعد تسليم المال الذى استقر عليه الاتفاق . فلما قرُب الرسول من البلد تلقاه على بن بويه على بُعد ، وسار معه وطالبه أن يسلّم إليه اللواء والخِلَع ؛ فعرّفه ما رسمه له الوزير ، فخاشنه علىّ بن بويه ، وأرهبه حتى سلّم الخِلَع ، فلبسها ودخل بها شيراز وبين يديه اللواء ، وأقام الرسول مدةً يطالب بالمال ، فلم يدفع علىّ إليه شيئاً ، حتى اعتلّ الرسول ومات بشيراز[2] .

وأما ركن الدولة فقد كان حليما ، واسع الكرم ، حسنَ السياسة لرعاياه وجُنده ، رءوفاً بهم ، بعيد الهمة ، يتحرّج من الظلم ، ويمنع أصحابه منه ، وقد أثنى المؤرخون على عدله وكرمه[3] .

ومن أمثلة ذلك أن إبراهيم السلاّر انهزم من بين يدى عدوّ له ، وورد

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ٤٤٤ — ٤٤٦ .
(٢) كتاب العيون ص ١٤٢ ا — ب .
(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٩٣ .

حضرة ركن الدولة « بدابّته وسوطه » ؛ فأكرمه ركن الدولة ، وبالغ فى إعطائه ، وحمل له من كل صنف يكون عند الملوك ؛ وكان المؤرّخ ابن مسكويه حاضراً بالرىّ ، فركب للنظر إلى الهدايا المحمولة إلى إبراهيم ، وكانت كثيرة لم يَرَ ابن مسكويه مثلها[1] ؛ وقد اقترح الأستاذ ابن العميد وزير ركن الدولة ، بعد ما رأى سوء تدبير إبراهيم واشتغاله بالنساء واللعب والسكر الدائم ، وبعد أن شاهد طمع الناس فيه ، أن يدبّر ركنُ الدولة الناحيةَ لنفسه ، حتى لا يضيع سَعْيُه فى إرجاعها اصاحبها ، ويعوّض إبراهيمَ بشىء آخر حتى يجلس آمناً فارغ البال ، ويشتغل بما يؤثره من صحبة المغنين والمساخر ، « فأبى عليه ركن الدولة وفكّر فى شىء يفكر فيه مثله من أصحاب الهمم الكبار وقال : يتحدث الناس أنى افتتحت البلاد لرجل لجأ إلىّ ؛ ثم طمعتُ فيه ! »[2] . ولقد قاسى ابنُ العميد الكثيرَ فى خدمته ؛ وكان ابن العميد وزيراً جيّد التدبير عليما بصناعة الملك وإصلاح ما فسد من أموره ، ولكن ركن الدولة كان مغلوباً على أمره لا يرى النظر فى العواقب ، ولا يستمع إلى آراء ابن العميد مع جودتها ، حتى إن ابن مسكويه يذكر ضعف ركن الدولة وفساد الأحوال فى حكومته ، ويذكر كفاية ابن العميد وحسن تدبيره ثم يقول : « فما حيلة وزيره ومدبّره ! » ، وكان ركن الدولة مع فضله على أقرانه من الديلم على طريقة الجند المتغلّبين ، ينعم بما يتعجّل له ، ولا يرى النظر فى عواقب أمره وعواقب أمور رعيته » ، وكان يفسح لجنده وعسكره على طريق مداراتهم ، وكان يوسّع عليهم فى الإقطاعات ؛ وكانوا يتواعدون من الليل إلى مواضع غامضة يجتمعون فيها ؛ وربما خرجوا إلى الصحراء ، واجتمعوا على ظهور دوابّهم ، « وثنوا أرجلهم على أعناقها بقدر ما يدّرون الرأى فى وجه

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ٢٨٠ — ٢٨١ ؛ و Amedroz : Der Islam, III, 385 .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٢٩٢ — ٢٩٣ ؛ و Amedroz : Der Islam, III, 396 .

الحيلة ، فإذا تمّ لهم تدبير يومهم فهو عيدُهم ونشاطهم » . وكان ركن الدولة يرى أن دولته مقرونة بدولة الأكراد ، فكان لذلك لا يمنعهم من العبث ولا يطلق يدَ حُماة الأطراف فى قصدهم ، « ويرضى أن يقال له قُطعت القافلة ، وسِيقَتِ المواشى ، فيقول : لأن هؤلاء أيضاً ، يعنى الأكراد ، يحتاجون إلى القوت[1] .

وكان الأمير معزّ الدولة ، أمير العراق ، حديداً سريع الغضب بذىء اللسان ، يُكثر سَبَّ وزرائه والمحتشمين من حشمه ، وكان يلحق المهلبىَّ من فحشه وشتمه مالا صبر لأحد عليه ؛ بل كان يضربه بالمقرعة[2] . ولكن معز الدولة كان خوّاراً فى أمراضه ، فكان كلما اشتدت عليه العلّة ، وأيقن بالتلف (كان مريضاً بامتناع البول ويرمل فى مثانته) بكى وندب على نفسه على عادة الديلم[3] . وكان أيضاً « سريعَ الدمعة » ، وكاد ينهزم فى إحدى المواقع ، فبكى بين أيدى غلمانه ، ثم سألهم أن يجتمعوا ، ويحملوا على العدوّ ، وهو فى أولهم ، فإما أن يظفر وإما أن يكون أوّل من يُقتل[4] . وكان لا يعرف للخليفة قدرَه ، فقد وثب عليه ، وهو تحت سلطانه ، وثبة الجندى المرتزق الغليظ القلب ؛ ولما مات وزيره أبو محمد المهلبى بعد أن ولى الوزارة له ثلاث عشرة سنة قبض معز الدولة أموالَه وذخائرَه ، وأخذ المالَ من أهله وأصحابه وحواشيه ، حتى من ملّاحه ومَنْ خدمه يوماً واحداً ؛ فاستعظم الناس ذلك واستقبحوه[5] . وبنى لنفسه داراً جديدة فى شمال بغداد ، فكان جملة ما خرج عليها ثلاثة عشر ألف ألف درهم ، ولم يتردد فى أن يصادر

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ٣٥٤ — ٣٥٧ .

(٢) نفس المصدر ج ٦ ص ١٩٢ — ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٣) نفس المصدر ج ٦ ص ٢١٠ ، ٢٤١ .

(٤) نفس المصدر ج ٦ ص ٢١٧ .

(٥) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٠٥ .

بسبب ذلك جماعة من أصحابه[١] . وكان لا يأبه كثيراً لحقوق رعيته ، فاضطر إلى حبط الناس واستخراج الأموال من غير وجوهها ، وأقطع قوّاده وخواصه وأتراكه ضياع السلطان وغيرها ، وكان يسامح الوزراء المقطعين ، ويقبل منهم الرشى ؛ واتسع الخرق حتى صار الرسم جارياً بأن يخرب الجندُ إقطاعاتهم ، ثم يردُّونها ، ويعتاضوا عنها بما يختارون ، ويترصلوا إلى حصول الفضل والفوز بالربح . ورقّت أحوال الرعية ، فمن هارب جالٍ ، إلى مظلوم صابر ، إلى مستريح لتسليم ضيعته إلى المُقْطَع ليأمن شرّه وبوائقه ؛ وقلّ حَفْلُ الناظرين فى الأعمال تعويلا على أخذ ما صفا ، وترْك ما كَدُرَ ، والرجوع على السلطان بالمطالبة . وفوّض معز الدولة تدبير كل ناحية إلى بعض الوجوه من خواص الديلم ، فاتخذوها مسكناً وطُعْمَة ، والتحف عليهم المتصرّفون الخوَنة ، فبطلت العمارةُ ، وخربت البلادُ ، واعتاض العمال عما يذهب من أموالهم بالمصادرة والحيف على الرعية ، وانصرف عمال المصالح عنها لخروج الأعمال عن يد السلطان[٢] . ولكن معز الدولة كان يُعنى بسدّ البثوق فى سدود الأنهار ، حتى خرج بنفسه مرة لسد بَثْق بادوريا ، وحمل التراب فى طرف قبائه ، ففعل جميع العسكر مثل فعله ، وكذلك خرج إلى النهروانات فسدّ بَثْقَها ، فعمرت هذه الأجزاء بعد خرابها ، وعم الرخاء ، حتى مالت العامة ببغداد إلى أيام معز الدولة وأحبوه[٣] .

أما ابنه مُختار الملقب بعزّ الدولة فقد وُهب قوةً جسدية عظيمة ، وكان شجاعاً ، وبلغ من قوته أنه كان يمسك الثور العظيم من قرنيه فلا يتحرك[٤] .

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٩٨ ، ومسكويه ج ٦ ص ١٩٣ ، ويقول ابن الجوزى (المنتظم ص ١٩٠) إن معز الدولة أنفق على البناء إلى أن مات مائة ألف ألف دينار .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ١٣٩ — ١٣٨ .

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٢١٨ — ٢١٩ ب .

(٤) ابن تغرى بردى طبعة كليفونيا ص ١٩ .

ولكنه فيما عدا ذلك فشل فشلا يُرثى له ؛ « وكان يحب أن يقضي أوقاته في الصيد والأكل والشرب والسماع واللهو واللعب بالنرد وتحريش الكلاب والديكة والفتاخ ؛ فإذا وقفت أمورُه قبض على وزيره واستبدل به »[1] . ويقول بعض أصحابه إنه كان من ملذاته دفاترُ مزبزة يضن بها ، وجوارٍ صوانع لا يسمح بهنّ ، وخيلٌ عِرَابٌ كان يستأثر بها ويحب أن يشتريها من البادية[2] ؛ وقد اتفق مرة أن أُسِرَ له في موقعة بالأهواز غلامٌ تركي ، فجُنّ عليه جنوناً ، وتسلّى عن كل شيء خرج عن يده إلا عنه ، « وامتنع عن الطعام والشراب وانقطع إلى النحيب والشهيق والعويل ... وتضجّر بالجيش ، وتبرّم بحضورهم ، واطّرح التدبير ... ثم إذا وصل إليه وزيره وقوّاده وكتّابُه وخواصُّه في المهمّ قطعهم عن ذلك بالشكوى بما حلّ به والبَوْح بما في نفسه ، وتقضّت أوقاته ومجالسه بهذا الخطب الجليل عنده ... فخف ميزانه عند الناس وسقط من عيونهم »[3] .

وكان عضد الدولة (المتوفى عام ٣٧٢ هـ — ٩٨٢ م) ، دون سائر أعضاء أسرته ، هو الذي يمثل السيدَ الحاكم تمثيلاً حقيقياً ؛ وقد خضعت لسلطانه ، في آخر أمره ، البلادُ الممتدة من بحر الخزر إلى كرمان وعمان ؛ فلا بدع أن يُلقّب بشاهنشاه (ملك الملوك) لأول مرة في الإسلام[4] ، بعد أن كان هذا اللقب يُشعِر من قبل بالتجوز على مقام الألوهية ؛ وقد ظل هذا اللقب لمن جاء بعده من ملوك بني بُوَيْه[5] ، فكان أيضاً إحياء لرسوم الشرق القديمة .

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ٣٨٦ — ٣٨٩ .

(٢) نفس المصدر ج ٦ ص ٤١٩ .

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٤٥٩ — ٤٧٠ .

(٤) انظر ص ١١٩ ب .

(٥) كتاب الوزراء ص ٣٨٨ ؛ وكتاب إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (وهو معجم الأدباء) لياقوت ، طبعة مرجليوث ج ٢ ص ١٢٠ .

كان عضد الدولة بحمل طابَعَ أهل الشمال ، فكان أزرق العينين ، أشقر ، أصهب الشعر[١] . وكان الوزير ابن بقيَّة يسميه أبا بكر الغُددى تشبيهاً له برجل أشقر أزرق أعمش يسمى أبا بكر كان يبيع الغدد برسم السنانير ببغداد[٢] . وكان عضدُ الدولة رجلا قاسياً ، وقد بلغه عن الوزير ابن بقية أمورٌ ساءته ، فطلب من بختيار بن معز الدولة يسلّمه إليه ، فسلمه إليه مسمولا ؛ فطرحه عضدُ الدولة إلى الفِيَلة ، وأُضرِيَتْ عليه ، فقتلته شر قتلة ؛ وهذه العقوبة هى الأولى من نوعها فى الإسلام[٣] . وقد بلغ من هيبته وخوف عماله منه أن الوزير المطهَّر بن عبد الله خرج من مدينة السلام لطلب أحد الخارجين على عضد الدولة ، فالتاث على المطهَّر الأمرُ وخاف تغيُّر عضد الدولة عليه ، فقتل نفسه[٤] ؛ ولكن عضد الدولة كان أيضاً قاسياً على نفسه ، فيُحكى أن جارية كانت له شَغَلَتْ قَلْبَهُ بميله إليها عن تدبير المملكة ، فأمر بتغريقها[٥] . وكان يعنى بمعرفة الأخبار وسرعة

---

(١) الإرشاد ج ٥ ص ٣٤٩ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان طبعة أوربا ١٨٣٩ ، ترجمة ابن بقية رقم ٧٢٠ ، نقلا عن عيون السير للهمذانى .

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٤٧٧ و ٤٨١ .

(٤) نفس المصدر ص ٥١١ — ٥١٤ : على أنه قد نُسب الى عضد الدولة أشياء كثيرة من الظلم لم يفعلها حقيقة ؛ فيحكى ابن تغرى بردى (طبعة كليفورنيا ص ١٠ — ١٦) أنه خطب الأميرة جميلة بنت ناصر الدولة بن حمدان ، فامتنعت عليه ، فاغتاظ من ذلك ؛ وحين وقعت فى يده [illegible] على أموالها ، ولم يدع لها شيئاً إلا [illegible] احتاجت وافتقرت . وفى رواية أحدث عهداً أنه ما زال يعسف بها فى المطالبة حتى عرّاها وهتكها ، ثم ألزمها ، إما أن تصحّح ما عليها من المال ، وإما أن تختلف الى دار القحاب ، فتكسب فيها ما تؤديه من المال المفروض عليها ؛ ولما ضاق بها الأمر ، وأشرفت على الفضيحة انتهزت غفلة الموكلين بها وغرّقت نفسها فى نهر الدجلة (معالم المدور للغزولى ، طبعة مصر ١٣٠٠ هـ ج ٢ ص ٤٨) . والحقيقة أن جميلة فرت مع أخيها أبى تغلب عدو عضد الدولة ؛ فلما ماتت اعتقلها عضد الدولة فى بعض الحجر فى داره مع جواريه ونسائه (مسكويه ج ٦ ص ٥٠٧) .

(٥) المنتظم ص ١٢٠ .

وصولها ، شأن كل من يريد أن يحكم دولة كبيرة حكما صحيحاً ؛ فكان يسأله عن الأخبار الواردة ، فإن تأخرت عن وقتها ذمت قيامته ، وسأل عن سبب التعويق ؛ فإن كان من غير عذر أنزل البلايا على أصحاب الأخبار ؛ وكانت الأخبار تصل من شيراز إلى بغداد فى سبعة أيام ؛ أى أنها تقطع كل يوم ما يزيد على مائة وخمسين كيلو متراً[1] .

وقد أحكم نظام الجاسوسية ؛ « وكان يبحث عن أشراف الملوك ؛ وينقب عن سرائرهم ؛ وكانت أخبار الدنيا عنده ، حتى لو تكلم إنسان بمصر رقى إليه ذلك ؛ حتى إن رجلا بمصر ذكره بكلمة ، فاحتال حتى جاء به ووبخه عليها ، ثم ردّه ؛ فكان الناس يحترزون فى كلامهم وأفعالهم من نسائهم وغلمانهم »[2] . وقد طهّر السبل من اللصوص ، ومما أثر العابثين الذين كانوا يقطعون الطريق ؛ ويحكى أنه دسّ على اللصوص فى إحدى القوافل بغلا يحمل حلوى شيبت بالسم ، فأكلوا منها فهلكوا ؛ وكانت هذه مكيدة عجيبة[3] . وأعاد النظام إلى صحراء جزيرة العرب وإلى صحراء كرمان ، وكانت أشهر بمخاوفها ، حتى رُفعت الحماية عن قوافل الحج ، وزال ما كان يجرى عليها من القبائح وضروب العسف ؛ وأقام للحجاج السواق فى الطريق واحتفر لهم الآبار ، واستفاض الينابيع وأدار السور على مدينة الرسول[4] ؛ وأمر بعمارة منازل بغداد وأسواقها ، وكانت مختلة قد أحرق بعضها ، وخرب البعض ؛ وابتدأ بالمساجد الجامعة ، وكانت فى نهاية الخراب ؛ وهدم ما كان مستهدما من بنيانها ، وأعاد بناءها ؛ وألزم أرباب

---

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر ص ١١٩ ب — ١٢٠ ا .

(٣) كتاب الأذكياء لابن الجوزى ص ٣٨ الباب الحادى عشر نقلا عن تاريخ الهمذانى .

(٤) المنتظم ص ١١٩ ا — ب .

العقارات بالعمارة ، فمن قصرت يَدُه عن ذلك اقترض من بيت المال ؛ وأمر من كان له دار على الشط من الأولياء والحاشية أن يجتهد في عمارتها وتحسينها . وكان الناس قد استطابوا هدم المنازل وبيع أنقاضها ، فأبطل هذه السنة وأعاد عمارة بستان عرصة دار العباس بن الحسين وغيره ، فامتلأت الخرابات بالزهر والخضرة والعمارة ، « بعد أن كانت مأوى الكلاب ومطارح الجيف والأقذار » ؛ وجُلبت إليها الغروسُ من فارس وسائر البلاد ؛ وكانت الأنهار ببغداد قد دُفنت مجاريها وعَفَتْ رسومُها ، ونشأ جيلٌ من الناس لا يعرفها ؛ فأمر بحفر عداتها ورواضعها ؛ وقد كانت على الأنهار قناطر قد تهدّمت وأهمل أمرها ، « فلم تكن تخلو من أن يجتاز عليها البهائم والنساء والأطفال والضعفاء فيسقطون ، فبُنيت كلها جديدة وثيقة ، وعُملت عملا محكما ؛ وكذلك جرى أمر الجسر ببغداد ، فإنه كان لا يجتاز عليه إلا المخاطر بنفسه ، لا سيما الراكب لشدة ضيقه وضعفه وتزاحُم الناس عليه ؛ فاختيرت له السفن الكبار المتقنة ، وعُرِّض حتى صار كالشوارع الفسيحة وحُصِّن بالدارابزينات . . . وأعيد كثير من قناطر أفواه الأنهار »[1] ؛ وحول من البادية قوما فأسكنهم فارس وكرمان فزرعوا وعمروا البرية[2] . ومع هذا فلم تكن العراق مركز الدولة ، بل كان مركز الدولة في فارس حيث كان يقيم قاضي القضاة أيضا ، ويستخلف له أربعة خلفاء على أرباع بغداد[3] . وكان عضد الدولة كثير الغض من أهل بغداد والازدراء لهم ، حتى قال : ما وقعت عيني في هذا البلد على أحد يستحق اسم الفضل أو أن يسمى برجل غير نفسين ثم فلما تأملت وجدتهما ليسا من أهل بغداد ، وأصلهما من

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ٥٠٧ — ٥١٠ .

(٢) المنتظم ص ١١٩ ب .

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٥٠٢ .

السكوفة[1] ؛ وعمل سوقا للبزازين ، ووقف عليه وقوفا كثيرة[2] . وكان ينقل إلى بلاده مالا يوجد بها من الأصناف ؛ فما نقله إلى كرمان حب النيل[3] ؛ وبنى بشيراز داراً عظيمة تشتمل على ثلاثمائة وستين حجرة[4] ، ووسّع الدار الكبيرة التي كانت للقائد سبكتكين ببغداد ، والتي تركها بعد وفاته ، وأجرى إلى بستانه الماء في مجرى عال يخترق الصحراء والأرباض ؛ واستخدم الفيلة في نقض هذه الدور ، ورَمْى حيطانها ، وفي دَكّ الأرض ، وكان أول من استعمل الفيول في القتال[5] ؛ وكان عازما على القيام بمشروعات بناء غير ما تقدم فمات قبل ذلك[6] . وكانت عادته أن يباكر دخول الحمام ، فإذا خرج وصلى الفجر دخل إليه خواصّه ، فإذا ترجل النهار سأل عن الأخبار الواردة ؛ ثم يتغدّى ، والطبيب قائم ، وهو يسأله عن منافع الأطعمة ومضارّها ؛ ثم ينام إلى الظهر ، فإذا انتبه صلى الظهر وخرج إلى مجلس القُدَماء والراحة وسماع الغناء إلى أن يمضي من الليل صدر ثم يأوى إلى فراشه[7] وكان قد تعلّم على أحسن المعلمين ، وكان يفتخر بمعلميه[8] ؛ وكان يحب العلم والعلماء ، ويجرى الجرايات على الفقهاء والمحدّثين والمتكلمين والمفسرين والنحاة والشعراء والنسابين والأطباء والحُسّاب والمهندسين[9] . وسنتكلم عن مكتبته وترتيبها وإعدادها في غير هذا المكان ،

(١) ملحق أخبار القضاة طبعة (Guest) ، ليدن ١٩١٢ ص ٥٧٤ .
(٢) المنتظم ص ١١٩ ب .
(٣) نفس المصدر ، ومسكويه ص ٥٠٨ .
(٤) المقدسي ٤٤٩ .
(٥) مسكويه ص ٥٠٨ .
(٦) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي طبعة سلمون (Salmon) ص ٥٦ وما يليها .
(٧) المنتظم ص ١٢٠ ا .
(٨) إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي طبعة ليبزج سنة ١٣٢٠ هـ — ١٩٠٢ م ص ٢٢٦ .
(٩) المنتظم ص ١٢ ا ، وابن الأثير ج ٨ ص ٥١٨ .

(انظر الفصل الخامس بالملحق) . على أن عضد الدولة كان يتشاغل بالعلم و يتفرّغ للأدب فى أيام دولته ؛ وقد وُجد له فى تذكرة : إذا فرغنا من حل إقليدس كله تصدقت بعشرين ألف درهم ، و إذا فرغنا من كتاب أبى على النحوى تصدقت بخمسين ألف درهم ؛ وكان يحب الشعر و يعطى الشعراء ، و يؤثر مجالسة الأدباء على مناداة الأمراء[1] ؛ وكان يقول الشعر وينشده ، و يحكم على معانيه بعد التقدير له[2] . وقد ذكر له الثعالبى شعراً عربيا ينسب إليه ، وهو لا يعدو أن يكون كلاماً موزوناً رديئاً[3] . ولكن هذا كله لم يمنع عضد الدولة من إساءة معاملة الصابى ، مع أنه كان سيد الكتّاب فى ذلك العصر . وقد أفرد عضد الدولة فى داره لأهل الخصوص والحكماء والفلاسفة موضعاً يقترب من مجلسه ، فكانوا يجتمعون فيه للمفاوضة آمنين من السفهاء ورعاع العامة . وأمر بإدرار الأرزاق على قوّام المساجد والمؤذنين والأئمة والقرّاء فيها ، و إقامة الجرايات لمن يأوى إليها من الغرباء والضعفاء[4] . و بنى مارستاناً كبيراً ببغداد . وقد وُجد فى تذكرة له : وكل ابن يولد لنا كما نحب نتصدق بعشرة آلاف درهم ، فإن كان من فلانة فبخمسين ألف درهم ؛ وكل بنت فبخمسة آلاف ، فإن كان منها فبثلاثين ألفا[5] ؛ وتجاوزت صدقاته أهل الملّة إلى أهل الذمّة ، فأذن للوزير نصر بن هارون فى عمارة البِيَع والديرة ، و إطلاق الأموال لفقراء أهل الذمّة[6] .

---

(١) يتيمة الدهر فى شعراء أهل العصر للثعالبى طبعة دمشق ج ٢ ص ٢ ، والمنتظم ص ١٢١ ا .

(٢) الإرشاد ج ٨ ص ٢٨٦ وكتاب الأذكياء لابن الجوزى ص ٣٨ .

(٣) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٣ وما بعدها .

(٤) مسكويه ج ٦ ص ٥٠٧ ، ٥١٠ — ٥١١ .

(٥) المنتظم ص ١٢٠ ا .

(٦) مسكويه ج ٦ ص ٥١١ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٥١٨ .

غير أن عضد الدولة لم يكن أبا لرعيته ، بل ظل الحاكم الأجنبى عنهم ؛ وهو كالراعى الذى يحسن العناية بغنمه لينتفع منها بأكبر نصيب ؛ وفى آخر أيامه أحدث رسوماً جائرة ، وزاد الرسوم القديمة ؛ وكان يتوصل إلى أخذ المال بكل طريق[1] . وفى آخر عمره كان دخله فى السنة ثلاثمائة ألف ألف وعشرين ألف ألف درهم ، فأراد أن يبلغ به ثلاثمائة وستين ألف ألف ، ليكون دخله كل يوم ألف ألف درهم ، « وكان مع صدقاته وإيصاله ينظر فى الدينار ويناقش فى القيراط[2] » .

والحكم الأخير الذى انتهى إليه مسكويه فى كلامه عن عضد الدولة أنه قال : « فلولا خِلالٌ كانت فى عضد الدولة يسيرة ، لا أستحسن ذكرها ، مع كثرة فضائله لبالغ من الدنيا مناه ورجوتُ له من الآخرة رضاه ، والله ينفعه بما قدّمه من العمل الصالح ، ويغفر له ما وراء ذلك »[3] .

وتتجلى مواهب عضد الدولة السياسية فى اختياره لولاته : فقد ولّى على الجبل وهمذان والدينور ونهاوند وأسد آباد وغيرها بدرَ بن حسنويه الكردى (المتوفى عام ٤٠٥ هـ — ١٠١٤ م) ؛ وقد قامت هيبته بالشجاعة والعدل والسياسة وكثرة الصدقة ... وكانت جراياته وصدقاته متصلة على الفقهاء والأشراف والقضاة والشهود والأيتام والضعفاء ؛ وكان يصرف كل سنة ألف دينار إلى عشرين رجلا يحجبون عن والدته وعن عضد الدولة . وكان يتصدق كل جمعة بعشرة آلاف درهم على الضعفاء والأرامل ، ويصرف كل سنة ثلاثة آلاف دينار إلى الأساكفة والحذائين بين همذان وبغداد ليقيموا المنقطعين من الحاج

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٦ .

(٢) المنتظم ص ١٢٠ ب .

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٥٢١ ، وهذا المؤرخ كان من عرف عضد الدولة وخدمه

بالأحذية . وكان يصرف إلى تكفين الموتى كل شهر عشرين ألف درهم ؛ وعمّر القناطر ؛ واستحدث فى أعماله ثلاثة آلاف مسجد وخان للغرباء ؛ ولم يمرّ بماء جارٍ إلا بنى عنده قرية ؛ وكان ينفذ كل سنة فى الصدقات على أهل الحرمين وحفظ الطرق ومصالحها مائة ألف دينار ؛ وكان ينفق على عمارة المصانع وتنقية الآبار وجمع الملوفة فى الطريق ، ويعطى سكان المنازل رسوماً لقيامهم ، وعمل إلى الحرمين والكوفة وبغداد ما يُفرق على الأشراف والفقهاء والقراء والفقراء وأهل البيوتات[1] .

وقد تَخَرَّج على يدى عضد الدولة القائدُ أمير الجيوش (المتوفى عام ٤٠١ هـ — ١٠١٠ م) ، وهو الذى ولّاه بهاء الدولة تدبير العراق لإعادة النظام إليها ، فقدم بغداد عام ٣٩٢ هـ — ١٠٠٢ م ، والفتن قائمة ؛ فقتل وصلب وغرّق ، حتى بلغ من هيبته أنه أعطى غلاماً له صينية فضة فيها دنانير ؛ وأمره أن يأخذها على رأسه ويسير من أول بغداد إلى آخرها علّ أحداً يعترضه ، فعاد وقد انتصف الليل دون أن يعترضه أحد[2] .

ولم يُخرج بيت بنى بويه بعد عضد الدولة جيلاً يصلح للحكم ؛ واضمحلت فى أواخر الأمر مواردهم المالية ، واختلت المملكة أيام جلال الدولة ، وقُطعت عنه المادة حتى أخرج ثيابه وآلاته وباعها فى الأسواق ، وخلت داره من حاجب وفراش وبواب ، وصار أكثر الأبواب مغلقاً ، وانقطع ضَرْبُ الطبل له فى أكثر الأيام لانقطاع الطبّالين[3] .

---

(١) المنتظم ص ١٦١ ب .

(٢) المنتظم ص ١٠٦ ب وابن تغرى بردى طبعة كاليفورنيا ص ١١١ .

(٣) المنتظم ص ١٨٤ ب .

وأما أمراء الترك فيمثلهم بجكم والإخشيد ، وكل منهما جندى ماهر وحاكم قدير ، وإن كان مظهرهما الخارجى لم يكن بشيء .

أما بجكم ففيه خصال قائد الجند المرتزقة كلها ؛ فقد انتقل من خدمة ما كان الديلمى إلى خدمة مرداويج ؛ وبعد قتل مرداويج — ويقال إنه كانت لبجكم يدٌ فى قتله — ذهب مع ثمانمائة من الترك والفرس إلى ابن رائق ؛ وظل غلمان مرداويج تحت إمرة بجكم[1] ، ولم يكن عددهم عظيما ؛ فيقول مسكويه إنهم كانوا ثلاثمائة غلام استأمنوا إليه[2] ؛ ثم تقدم ابن رائق إلى بجكم بأن يكاتب كل من بالجبل من الأتراك والديلم بالمصير إليه ، فكاتبهم وصار إليه عدةٌ وافرة منهم[3] . ثم استقلّ بجكم بدوره السياسى الخاص ؛ فأزال اسم ابن رائق عن أعلامه ، وترك الانتساب إليه[4] ، وحاربه حتى أخرجه من بغداد ، وصار هو أميراً على العراق ؛ وكان معه فى ذلك الوقت سبعمائة من الترك وخمسمائة من العجم[5] . وكان الخليفة الراضى يحب بجكم أكثر من حبه لابن رائق ، وقد خلع عليه خِلَع المنادمة ، وجعله أمير الأمراء[6] . وبعد موت الراضى طمع بجكم فى جماعة من ندمائه ، وظن أنه ينتفع مع عجمته بآدابهم ؛ فلما نظر لم يجد منهم من يفهمه ما ينتفع به إلا الطبيب سنان بن ثابت رصله وأكرمه ، وطلب منه أن يداويه من غلبة

---

(١) كتاب العيون ص ١٤٨ أ — ب .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٥٠٧ ، وفى كتاب العيون ص ١٥٥ ب أنهم كانوا مائتين وتسعين غلاما .

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٥٠٨ ، وكتاب العيون ص ١٤٨ أ — ب .

(٤) كتاب العيون ص ١٦٣ أ .

(٥) كتاب العيون ص ١٦٤ أ .

(٦) الأوراق الصولى ص ٥٣ — ٥٥ ، وكتاب العيون ص ١٦٧ أ

الغضب والغيظ ، وإذا عرف له عيباً ألا يحتشم من ذكره له ، ثم يرشده إلى علاجه ليزول عنه[١].

وكان بجكم ذا شجاعة نادرة ، فقد لقى عشرة آلاف من عسكر البريدى بأتم عدة وأكمل سلاح ، ولم يكن معه إلا مائتان وتسعون من الأتراك ، فهزم عسكر البريدى ؛ وفى إحدى المواقع طرح بجكم نفسه مع جماعة من الأتراك فى دجلة ، وسبحوا وعبروا إلى الأرض التى عليها العدو ، وذلك أمام عينه ؛ وعبر الديلم فى الطيارات و بعضهم عبر سباحة ؛ وقاتل العدو ، وهو يظن أنه منه فى أمان ، حتى هُزموا وانصرفوا بين يديه[٢] ؛ وخرج ابن رائق من بغداد ، ولم يَتَشَفَّ بجكم منه ، فلما كان مع الراضى فى سُرّ من رأى ، وورد الخبر بخروج ابن رائق إلى باب الأنبار استأذن بجكم الخليفة فى أن يعبر من سُرّ من رأى إلى هيت مجتازاً الصحراء ليأخذ على ابن رائق الطريق فلا يفوته ، فلم يأذن له الراضى وقال : هذا لا يصح ، لأنه رجل قد أمّنتُه ، وإذا فعلنا ذلك بعد الأمان كان قبيحاً[٣] وقد غلب بجكم هذا سيفَ الدولة صاحب الانتصارات المشهورة على الروم كلما نزل سيف الدولة لمحاربته .

ولما جاء بجكم إلى بغداد حمل معه كثيراً من ضروب الغلظة التى اقترنت بحياته الجندية ؛ وعند ما دخل واسط طالب أهلها بالمال واشتدّ فى تعذيبهم حتى كان يضع على بطن الرجل منهم طستاً فيه جمر ؛ فنبّهه البعض إلى أنه يفعل ما كان يفعله مرداويج بأهل الجبل ، وذكّره بأنه فى بغداد ودار الخلافة لا الرىّ

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ٢٦ والصفحات التالية

(٢) كتاب العيون ص ١٥٥ أ — ب .

(٣) نفس المصدر ص ١٧٦ أ .

وأصبهان ، ولا تحتمل بغداد هذه الأخلاق[١] . وقد أبغض أهلُ بغداد بجكم لقبح سيرته ، فلما ظهر ابن رائق سُرُّوا به ، وأظهروا ما فى أنفسهم من بغض بجكم ، فكان العيّارون والصبيان يهزأون ببجكم ورجاله ويقولون : بجكم جلقوا نصف سباله ؛ فإذا رأوا تركيا عليه قلنسوة صاحوا به : قلنسوةُ طيرى ! ليس أميرنا بجكم[٢] .

على أن بجكم كان أميراً محبا لعمارة البلاد ، حتى إنه رأى قصور الأكاسرة الخربة فى المدائن ، فعمّر مواضع كبيرة فى تلك الناحية وأنشأها ، وأجرى إليها الأنهار ، وغرس بها غروساً[٣] . وكان يدفن أمواله فى الصحراء ويأخذ معه رجالا ليعاونوه ، فيطبق عليهم الصناديق ، ويحملهم على بغال إلى جوف الصحراء ؛ وبعد أن يدفن المال يطبق عليهم الصناديق ويعود بهم فلا يدرون إلى أين ذهبوا من أرض الله ولا من أين جاءوا . وكان هو يتخذ لنفسه علامات يهتدى بها[٤] . وأصل هذا التصرف راجع إلى بساطة بجكم وتخبُّطه فيما يجهله من الأمور غير العسكرية .

أما محمد بن طغج فأصله من أولاد ملوك فرغانة ، وكان جده قد جاء من التركستان فى عهد الخليفة المعتصم ؛ وكان هذا الخليفة أول من جلب الكثير من الجنود الأتراك واستخدمهم ؛ أما أبوه فقد ارتقى حتى صار واليا على دمشق ، ولكنه عُزل وسُجن هو وابنه محمد ، فذاق هذا الأخير من الحياة حلوها ومرّها ؛ وخدم ابنُ طغج قواداً كثيرين ، حتى إنه كان مرة بازياراً لعامل الشام يخرج

---

(١) مسكويه ج ٥ ص ٥٧٠ ؛ وانظر أواخر الفصل الخاص بالمالية فيما يأتى .
(٢) كتاب العيون ص ١٧٥ ب .
(٣) نفس المصدر ص ١٨٠ أ .
(٤) مسكويه ج ٦ ص ٢٩ — ٤١ ؛ وانظر أيضاً الفصل الخاص بالمالية فيما يأتى .

معه الصيد ويحمل معه الجوارح ؛ وقد أتيحت له فرصة لإظهار شجاعته عند حاكم مصر مما رفعه إلى منصب والي مصر ؛ ثم صار أميرها المستقل ، وامتد حكمه أخيراً على بلاد تساوى فى المساحة أكبر رقعة حكمها ملوك الفراعنة ، فكانت له مصر والشام واليمن ومكة والمدينة وغيرها[1] ؛ فلا عجب إذاً أن ترى الخليفة المستكفى يكتب إلى الإخشيد ويعرض عليه إمارة بغداد بعد موت توزون ، ويضمن له القيام بالأمر ، فلا ينشط لذلك ؛ وكان الإخشيد أزرق بطيناً[2] ، وكان شديد القوة لا يقدر على أن يجرّ قوسه غيرُه ؛ ولكنه كان قد ثار به طرف من سوداء مرّة ، فكان يعتاده فيخلط[3] ؛ وقد حَسُنَ حالُ مصر على يديه ، وعنى بالنظام فيها ، وأمر بضرب الدينار الإخشيدى على عيار كامل ، وصلحت النقود فى عهده بعد فسادها[4] . وكان جيشه أعظم جيوش عصره ، فلما استدعاه المتقى فى عام ٣٣٣ هـ — ٩٤٤ م ، واقترب من الرقّة والرافقة أشرف أهلهما على السواحل والأسوار ونظروا من عظم العسكر وحسن عدّته ما لم يشاهدوا مثله[5] .

وقد التقت فى الإخشيد خصلتان : السذاجة وحب التملك ، فكان اجتماعهما طريفاً ؛ وقد بدأ بمصادرة جميع العمال الأغنياء ، أصدقاء كانوا أم أعداء ، وأخذ أموالهم فى هدوء من جانبه وبرود ؛ وكثير منهم كان يستحق هذا . وقد اشتهرت عنه محبته للعنبر ، فكان أكثر ما يُهدى إليه ؛ وكان إذا جاءت الأوقات التى يُهدى إليه فيها أخرج من خزائنه العنبر وباعه إلى التجار ، فيشتريه الذين

(١) انظر ترجمة محمد بن طغج فى كتاب وفيات الأعيان ج ٣ ص ٦٤ — ٥٥ ، وكتاب المُغرب فى حلى المغرب لابن سعيد طبعة ليدن ١٨٩٨ من ص ٤ إلى ص ٢٠ .

(٢) كتاب المغرب لابن سعيد ص ٣٩ .

(٣) نفس المصدر ص ١٦ — ١٧ .

(٤) كتاب العيون ص ٢٠٩ ب .

(٥) نفس المصدر ص ٢١٣ ب .

يهدونه إليه ، فيحصل له الثمنُ الوافر ، ثم يعود العنبر إليه[١] . وتحكى عنه حكايات تدل على أنه كان لا يأنف أن يأخذ ما يعجبه إذا وجده عند أحد من أصحابه[٢] .

ولكن كان الغالب على الإخشيد الحياء ورقة الوجه ، وكان إذا صادر أحداً لم يعذّبه ولم يضربه ، ولم يضيّق عليه ، ولم يَرَه حتى تنتهى المصادرة ، وكان رسمه ألا يتعرّض للحُرَم[٣] ، وكان يحب الصالحين ويكرمهم ويركب إليهم ويطلب دعاءهم . يقول ابن سعيد[٤] : « وحدثنى مسلم بن عبد الله الحسينى قال : وصفت للأخشيد رجلاً صالحا بالعرافة يعرف بابن المسيَّب ، فركب معى إليه ، وسأله الدعاء ، ثم انصرف . فقال لى : تعالَ أريك أنا أيضاً رجلاً صالحا ؛ فمضيت معه إلى أبى سليمان بن يونس ، فرأيت شيخاً أديباً جالساً على حصر سامان مُبَطَّن ، فقام فتلقّى الإخشيد وأقعده على الحصير ؛ ثم قال له يا أبا سهل : اقرأ علىّ ! فإن الريح آذتنى الساعة فى الصحراء ؛ فأدخل يده تحت الحصير فأخرج منه منديلا نظيفاً مطويا فغطاه على يده وقرأ عليه » . وكان الإخشيد يحب قراءة القرآن ويبكى عند سماعها[٥] .

وقد وقع له مرةً أمرٌ عجيب ؛ وذلك أن رجلا من أهل العراق صعد فوق زمزم بمكة وصاح : معاشر الناس ! أنا رجل غريب ، ورأيت البارحة رسول الله

---

(١) المغرب لابن سعيد ص ٣٥ — ٣٦ .

(٢) انظر الفصل الخاص بالأخلاق والعادات .

(٣) المغرب لابن سعيد ص ١٥ ، ٣٧ .

(٤) المغرب ص ٢٤ — ٢٥ ، ص ٣٩

(٥) نفس المصدر ص ٣٧

صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول لى : سِرْ إلى مصر ، وائْتِ محمد بن طغج ، وقل له عنّى يطلق محمد بن على الماذرائى ، فقد أضرّ بولدى . ثم سارت القافلة إلى مصر ، وسار الرجل ووصل إلى مصر وبلغ الإخشيدَ خَبَرُه ، فأحضره ، وقال إيش رأيت ؟ فأخبره ، فقال : كم أنفقت فى مسيرك إلى مصر ؟ قال : مائة دينار ، فقال : هذه مائة دينار من عندى ، وعُدْ إلى مكة ، ونَمْ فى الموضع الذى رأيتَ فيه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا رأيتَهُ فقل لرسول الله : قد بلّغتُ رسالتك إلى محمد بن طغج ، فقال : بقى لى عنده كذا وكذا ، وذكر شيئاً كثيراً ، فإذا دفعه إلىّ أطلقته ؛ فقال له الرجل : ليس فى ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم هَزْلٌ ، وأنا أخرج إلى المدينة ، وأنفق من مالى وأسير إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وأقف بين يديه يقظان بغير منامٍ ، وأقول : يا رسول الله أدّيْتُ رسالتك إلى محمد بن طغج ، فقال لى كذا وكذا ، وقام الرجل ؛ فأمسكه ، وقال : حصلنا فى الجد ؛ إنما ظَنَنَّا بك ظناً ، والآن فما تَبْرَحُ حتى أطلقه ، فأرسل إليه الإخشيد من توسط فى أمره وأطلقه[١] .

وفى سنة ٣٣١ هـ — ٩٤٢ م ورد الخبر من دمياط إلى مصر بأن رجلا أقطع اليد قديماً ، ممن قد أُخذ مع قومٍ اتهموا بقطع الطريق ، غاب عن البلد زماناً ثم عاد ويده صحيحة . وقد ادّعى أنها كانت مقطوعة وأنها كانت عند أهله ؛ وقال إنه كان فى مسجد يتعبّد فيه وأن يده عادت صحيحة ؛ فافتتن الناس به وكثر القول فيه ؛ فوجّه الإخشيد من أحضره إلى داره ، وسأله عن قصته فقال : رأيت فى النوم

(١) المغرب لابن سعيد ص ٣٥ .

كأن سقف المسجد قد انفتح ونزل إليّ منه ثلاثة أنفس : النبي وجبريل وعليٌّ عليهم السلام ؛ فسألتُ النبيّ رَدَّ يدى ، فرَدَّها إليّ ، وانتبهتُ ، وقد عادت . وورد من دمياط كتاب بأن جماعة من المستورين رأوه مقطوع اليد ؛ فأوصله الإخشيد إليه وأكبره ، واستعظم قدرة الله تعالى فيه ، ثم قيل إن هذا الرجل دلّس وكذب ، وزالت الفتنة والله أعلم[1] .

(١) كتاب العيون ص ٢٠٩ ب — ٢١٠ .